

ليلة رأس السنة

لامين مشرق

الجو مثليد بنيوم كثيفة تعجب عن الأرض أنوار النجوم ، ويوت
نيويورك منطقة بادثرة صفيقة من الظلام ، والمطر يهطل بغزارة فكأن السماء
صارت « مصفاة » والله حول إليها مجاري جنته

في أحد الشوارع بيت تدفق منه ضجة عظيمة تشبه صوت مطحنة أو
خرير شلال . تد يسمعا المارون في الشوارع بوضوح ولكنهم لا يتمكنون
من رؤية مصادرها لان الابواب والنوافذ محكمة الاقفال حتى ليكاد النور
يعجز عن التسرب خلال شقوقها . وما هي هذه الضجة ؟ هي اصوات آدمية
متنوعة يتخللها اصوات حجار الدومتو والطاولة والورق مزوجة برنين كؤوس
الشرايب ومن وقت الى آخر تخترق الجميع صيحة من قم فونوغراف حسن
الصوت فيرد عليها الجميع - « الله يا مطرب »

للشرقي عموماً والسوري خصوصاً طريقة خصوصية ينوذاها لاطهار
عواطفه في مجالس الطرب - حتى وفي مجالس الحزن ايضاً وهي - الضجة .
« الضجة » عندنا تعني « الطرب » فالمجالس بلا ضجة ليس مجالساً ولا اصحابه
باهل « كيف » ولو افرغوا في بطونهم كلما تستخرج مدينة زخلة من العرق .

وليس ذلك فقط ولكن هناك امراً يزيد على امر الضجة وهو - جيل الكانج
والزمان للناسيين للطرب ، من امثال ذلك ما اذكره والذكري تولىني عن
حادثة جرت امامي في مطعم سوري في نيويورك . الوقت الظهر والمطعم
مكتظ بالزائرين . هناك في القرنة الى طاولة صغيرة جلس اربعة رجال يشربون
الموسكي فاتحة للنساء . لم تعض بعض دقائق حتى احمرت عيونهم وانتفخت
اوداجهم ونسوا انهم جاءوا للاكل لا للشرب فجهلوا يطلبون الكأس تلو
الآخرى والنادم يزيدهم حتى امتلأت ادغمتهم بينار المسكر وهاجت قريحة
احدهم (احسنهم صوتاً بالطبع) فصاح من اغراق قلبه بيت من العتابا ذهبت
من ذاكرتي حرفيته وبقي شيء من معناه وهو ان الرجل كان ناسياً حيث
فانت الكأس وذاكرته بها (معنى جميل !) وما زاد في الطين بلة وزاد ابضاً
في تغلق قريحته وحماسته وحيوة سيدتين اميركيتين دعاها احد السوريين
لنذوقا لذة المآكل الشرقية ، فان عبته الحداوين لم تتعدولا عنهما مع انهما
لم تلتفتا اليه الا حين مرخ متغنياً بيت العتابا وارتح المطعم ببساده . ليتأمل
القاري ، مبلغ اندمسة التي استولت على السيدتين والرجل الذي غمر صاحب
الدعوة ١٠٠٠ !

وبما عرف القاري ، من وصف البيت المذكور انه قهوة . ندخل ونرى
قاعة مسعة صفت فيها الطاولات صفوفاً اربعة يبتدىء من الباب الخارجي
وتنتهي قرب المطبخ في الطرف الداخلي الصف الواحد يحتوي على خمس
طاولات ، والطاولة اربعة رجال ، ففي القهوة اذا غفونوا زائر .

اختار من العشرين طاولة أربعة فقط فأقتر وإياكم بضع دقائق حول
كل منها .
الطاولة الاولى . اربعة شبان اكبرهم لا يتجاوز العشرين سنة يلعبون
بالورق .

— « اشلح يا بطرس اشلح - بدى اخطف روح هالاص »
— « ما فشرت . اصي بيقتص رقبتهك يا حمار »
— « حمار متلك . اشلح تشوف »
— « تشوف العمى . خذ هالجيار المكرفج »
— « مو حيب . انا باخذنا بست مثل قلب الصباح . خليه لشريكك
مركيس »

— « سد نيمك . شريكى منو فضلة عشاك . بستوي اشلحوا »
— « الله الله كيف يتمقطع فينا الليلة بطرس بك . من اين حضرة
الشب ؟ »

— « بستوي اشلحوا . طلق . طلق . طلق »
— « بستوي اشلحوا . طلق . طلق . طلق »
— « خمسين . عدوا الورق وروحوا تعلموا لعب الداكا »
— « ايش ؟ »

— « طلعتا البرقينا . ادفعوا تبشرف »
هنا يأخذ كل من المنلويين من جيبه خمس سننات ويقدمها للغالب .

وبعد ان يتم الدفع يصرخ بطرس - " البريتيا بشر ستبات " فيرد ابقاقون -
 " بعشره بعشره "

الطاولة الثانية . الفرق بينها وبين الاولى ان الشبان هنا اكبر سناً وانهم
 يلعبون بالدومينو بدلاً من الورق ويستعملون الريالات بدلاً من الستات

- " زهري هالليلة ملعون "

- " وزهري انا ألعن "

- " حط ريك يا منصور "

- " خذ . ريكك تمحط "

- " من هلق وزايح الدق بريالين "

- " بريالين شيطانين . خلصونا ملع العصيح "

- " وطلعت روح منصور من الحماره "

- " واصفرت خلقتو . يا ريتهم سيود مكسور لانه ما اتصور ولا مره "

- " جهار وباك . حياك ابليس وبياك "

- " ساه وبنج . حياك ابليس و... و... و... وش... "

- " قه قه قه . خانت حنا القريجه . يا حيف على الشاعر "

- " شاش . هات يا زهر هات . اهلا . يرافو . شرفني الشاش "

مكسرت يا اصحاب . عدوا "

- " مسكين منصور الدفع ريالين هالمره "

بحث منصور في جيبه فاخرج ريالين وضعها على الطاولة ببيأة منكسرة

ومضى الى كرسي في طرف القاعة الداخلي وانعرج بيأس

— « ايش بالك يا منصور ؟ »

— « بطلت اللعب . هذا آخر ما معي »

استأفت الآن انظار القراء الى شاب منفرد بنفسه عن العائدين في منتهى
الغرفة لا يتكلم ولا يتحرك . وقد كان يشرب كأساً من البيرة فلما رأى
منصور وهو عذيقه قادمًا وطارحاً بنفسه على الكرسي ترك الكأس وقام
فجس بقربه وجعل يحادثه بهدوء

الطاولة الثالثة . حولها اربعة يدخلون ويشربون القهوة ويتكلمون
بصوت منخفض اخف لفتلاً من الباقين . ويستدل من لهجهم انهم من تلامذة
المدارس وخيان العلم ومن طبقة عالية في الشعب

— اما الان وقد اجتمعنا يا اصحاب فدعونا نقضي هذه الليلة كما يرام .
هات يا لمريد واخبرنا ماذا حدث لك في حياتك من حوادث الترام فان في
صدرك والحق يقال روايات تفوق غصن البان والاميرة فوستا ومنائر الجن
بحوارتها العجيبة .

— لقد غلغلت يا حبيب فان الروائي الكبير بيننا الليلة هو صاحب وليس
انا . وطالما قص علي العجائب عن انتصاراته في معارك الحب

— انا ؟ لا لا . بينكم من هو افصح مني . ليتكلم شسيم فحدثه بعريف
كاشسيم .

— والله قد زودتم في الرقة حتى انتم انتم . يكانيكم ولا لا . وشجها . وشوها .

وما يشترق من بيتندي حاجي بقا ٤٠

هنا يتنحج حليم ويجلس مستعداً للكلام

الجميع - حليم يرافقه حليم . تكلم تكلم

حليم - اما وقد وقع علي اختياركم فاني اشترط عليكم ان تضعوا

امامي غلبة من السيكرات فاني اري سيكراتي قد نفذت كلها

الجميع - يا ولد . هات غلبة برنس

حليم - (وقد اشعل سيكارة ومضها) عندي ايها الاصدقاء دور صغيري

مثلثة موهناً ولا يزال طي الكتمان سابوح به اليكم راجياً ان تدفئوه في

اعناق سدوركم لان افشاءه يضر بسمعتي

الجميع - تكلم . كلنا في الهوى سوا

حليم - من مدة عشرة اشهر او اكثر بقليل حول الساعة السادسة في

المساء كنت ماراً بقرب احدى البنايات فاذا بقبعة نسائية حملتها الريح

وضربت بها صدري . ريتما انا امسكها اذا بفتاة جميلة الصورة جداً (صاحبة

القبعة بالطبع) قد وصلت ومدت يدها لاحتذاها قائلة « نالك بو » بلهجة

ضميمة عرفت منها ومن ملامح الفتاة انها سورية . لا لزوم لان اخبركم

انني عرفتُها بنفسي ومشيت معها الى « الصبواي » ولا لزوم ايضاً بان اقول

لكم كيف ملكت صداقتها بعد ايام قليلة بروري في الوقت ومراقبتي اباها

الى القطار ثم الى بيتها بعد ان تمكنت الصداقة بيننا . الخلاصة انه تم يمشي

شهر واحد حتى بدأت الصداقة بالتحول الى حب فقي مساء يوم سبت من

اذ ان المنسوم تواعدنا على اللقاء في مكان معين ثم للذهاب سوية الى اقبانرو
 لحضور مشاهد جديدة اعلتها المهرائد ذلك الاسبوع . الفتاة بنية الموالدين
 وليس لها اقرباء هنا ولذلك فقد كانت تسكن مع عائلة اميركية في بيت
 لا يقطعه سوريون وهذا مما مهد طرق المواصلات بيننا بحرية . أتقدرون ان
 تتصوروا مبلغ لذتي حينما كنا جالسين جنباً الى جنب في فلام التياترو كم
 شعرت بالنار تتأجج في صدري وكم هممت ان اضمها وارنوي من تقبيل
 شفتيها . الله على تلك الدقائق اللذيذة . وآه لو رأيتم وجهها حينما خرجنا من التياترو
 واحس ببرودة الطقس كيف تحول بياضه الى حمرة بدقيقة . رأيتم تفاح
 كليفورنيا الاحمر الكبير ؟ فشر الف فشرة عند تلك الوجنتين 'الوردتين'
 كان البرد شديداً في الشارع حينما خرجنا وكانت الساعة الثامنة مساءً والليل
 مظلمة . ويظهر ان الانتقال الفجائي من حرارة الداخل الى برودة الخارج
 اثر على صاغيبي فأرابتها ترتجف بشدة واسنانها تصطك بسرعة . ولذلك افنتها
 بعد المانة الطويلة ان نذهب الى محل قريب لشرب جرعة من الوسكي
 فيزول عنها الزعاجيا . دخلنا الفرقة والمسكنة لا تعرف اين هي لشدة ألم
 الصداع في رأسها . وبعد ان اتى الخادم بطاولة الشراب واقلل الباب جلست
 الى جانبها وشرعت اسقيها الكأس بعد الاخرى وهي ترفض اولاً ثم تقبل
 مكرهة لمسايرتي . لكن الوسكي زادت في آلامها وبينما انا اصب الكأس
 الاخير ارتجفت بعنف ومالت على المتكأ وقد غابت عن الصواب
 هنا بلغ الثلاثة ريقهم وزادوا اصفاً . وصمت جليم برهة متأملاً

بدخان سيكارته المتصاعد نحو السقف ثم ضحك قليلاً واردف - ثم أرها
بعد تلك الليلة . وهي الصيدة الوحيدة التي افلتت من يدي . مسكينة ما
أظهرها وما اشد صفاء قلبها

فريد - (مبتسماً) افضل الغزاء والسلوان لك يا حليم
حبيب - (ضاحكاً) يحق لك الفخر والمباهاة بانتصاراتك على الجنس
اللطيف .

نسيم - (غامزاً بطرفه) من سوريات وامير كيات وكل اجناس الشعوب .
حليم - (طاولاً الورقة بعظمة) جآء دوركم . هاتوا يا كدعان
اخبرنا يا نسيم عن صديقتك الامير كية الشقواء .

الطاولة الرابعة . اربعة قد لعبت برووسهم ابنة العنب
انطون - (مترجماً) « . . . سليمان الحكيم عليه السلام قال - قليلاً
من الخمر يفرح قلب الانسان - ومين بعد لازم نصديق اذا ما صدقنا عندنا
سليمان - كل القديسين ورجال التوراة علمونا الشرب واولم جدنا المرحوم
نوح يرحم عظامو ققع سكره وخزق تيابو وتوك السمعة تلحق التسعين -
وبالانجيل ايش يقولوا عن المسيح ؟ ما حول الموي لخممر احمر يعرس قانة
الجليل تايشربوا الشباب ويشبعوا ؟ واليوم بيحك شي قيس متوف اللحية
ويقلك يا ابني لا تسكر الله ما يبيد - ولو - الله عينو ضيقه لما لدرجة -
عنده خمرة وسط كثير بالسما وما بيلتفت عها القنيتين الي ما يشبعوا زلمي -
قولولي بتكذب ! - وتنحسب انو ربنا طميع - وشايفلكم هيك ارجح -

منزمو ومنسكر سوا - ايش يا ملحم ؟ - واذا سارتمني ومسين منه لا
يرضى - يحرق دى ٠٠ يا ربي بلا خطيه عبالبكرة الصبح - خليه يعقل
اللي بعثوا ٠

ملحم - " دستور بكلمه بلا فعلما بحديتك - وتصديقاً لكلامك كان
عنا يسينه جابت جرو - ولن كبير صار يغلبها - رنا جابنا ؟ مغبوط -
رنا خلقنا ؟ عاصيوني - ولكن نحنا كبرنا - وبعد كل عاشرح خلونا من
الملكور - نحنا ملاين وهو واحد - والمسيح عليه السلام قال - ضعيتين
بيغالبوا قومي - لا تواخذوني يا اصحاب انا بحب عالم الرجال -
حكيانو بيعجوني - بيعجوني مثل كاس العرق -

مركن يا اخوان - كاسك يا خبي مخول - آي وين كتنا وصاينا ؟ العرق
نعم ٠ العرق - وتصديقاً لكلامكم كان في عجل بضيعتنا عند بوجريش -
فلت عاخابية العرق وما شال بوزو ناخلصها - اذا كانت البقر بتسكر ايش
بتعمل البشر ؟ - ربني اعمى من التنتين ان كنت عن اكدب - ولكن
الحمد لله عيني طيبين - ولو ما هيك ما دخلت عبالبلاد - الله ان طامنا
بالجزيره كيف بقت قلوبنا تدق من خوف الرجعة ٠ وتصديقاً لكلامكم
ما حدا منا رجع غير واحد من بتنرين - مسكين عاك الرجال كان عليه
صوت مثل صوت القصب ٠٠٠ "

مخول - " بردون ، بترجالك ٠٠٠ البتغريبي ما رجع ولا شي - صحيح
بتي يومين بالجزيره وعاد فلتوه واليوم قاعد بالسوت بلوسفل كتناكي -

يا عيني ما احلى هالة المدينة - ادألوا زعيتير بيمرفها - كاسك يا عيتير -
 محبه يا اخوان - زعيتير؟ نعم زعيتير رجال من اليمحيوكم - مرة بيمد
 مار الياس عليه السلام قام الجرن الكبير لثوق راسو وكانت كل شيا بيقرد
 الكدعان موجوده - الصليب حولو - وحمله الحطب التي كان يشاحها
 مثل رغيف الخبز ما في ابن مرا يقوم فيها - يا روحي ما احلى هالك الايام -
 وبطرس الطيرون كان عندو جمل اشتهرت فيعتنا فيه متلما اشتهرت بزعيتير -
 ليك يا خبي انطون في قشه بكاسك - يخرب بيت هالاصبي ما بيحيب شي
 فضيف - واذا كان ما بيحيب شي فضيف فالمنى اتو مجوي - واذا كان
 مجوي فالمنى اتو مقلط - وان كان مقلط لازملو غسله بنهر الاردن -
 وان ما تنسل بكسر دين راسو بهال

زعيتير - هدي حالك يا خبي مخول الصي ما عليه على لكن الحق
 بها اختياره الملعونه ام شاهين التي بتسل اواعي القهوه - والله لو ما كانت
 امرأ كنت بخني كفي بدما - المهلهل حنى كفو بدم جناس ابن مره -
 المهلهل بطل صحيح ولكن كليب الله برحمه عضامو كان ابرح بضرب انسيه
 - مين بيعرف وصية كليب لاختوه التي كتبها بالدم عالبلاطه؟ - البلاطه
 البلاطه الله ما اسرع الفكر - تذكرت البلاطه التي كنت اقعده عليها الان
 وجيبي طروز عند نبع القوار - آه يا اصحاب يلين هالاياام التي وصلنا ليها -
 يا هل ترى مترجع لبلادنا ومشوف جبابنا؟ - الله يحرق شوارب عبد الحميد
 التي دخلنا بهالحرب و

انظرون - " هس هس - هني جحشك يا فيلسوف زعيق - عبد الحميد
 محبوب من زمان وملك تركيا اليوم مدحت باشا -
 - " بتكذب يا حصار - مين هالي بيقدر يحبس السلطان -
 - " حصار متلك يا ترس - لا تجفني كلامك -
 - " تيس ابوك يا ابن كيت وكيت - بدي اخلع نيمك بهالصرماية -
 - " اف - يا برغوت المزيه ؟ - جرب حالك يا خنزير -
 هنا يهجم زعيق على انطون فيفصل مخول وملحم بينهما وبعد القيل
 والقال وتجهر كل من في القهوة تعود المياه الى مجاريها
 - " يا زعيق بوس خيك انطون - يا انطون بوس خيك زعيق -

ومضى كل شي ، ولكن قبل ان يرجع الجميع الى مجالسهم وقبل ان
 تنفرط حلقتهم الممتعة حول المتخاصمين وقف الشاب المنفرد الذي اشرفنا
 اليه سابقاً (الذي ترك كأس البيرة وجلس بقرب منصور بجاذبه) وقال بصوت
 جهوري - " ايها الاخوان جيباً "

تحولت الوجوه حالاً الى جهة الصوت واستقرت العيون جميعها على
 ذلك الشاب الواقف بلباء الخطيب فردد -

- ايها الاخوان الاعزاء - ربما ارعجت خواطركم باخذي من اوقات
 لؤكم بضع دقائق ولكن الليل طويل وبهار غد بطالة فلا ينقص كثير من
 سماعتكم - لست اقصد ايها الاخوان ان اتقي عليكم خطايا لاني اولاً لست
 من اهل الخطاة وثانياً ليس هذا المحل لهذه الغاية - وانما قصدني ان ابدى

لكم رأياً عساكم تواقفوني عليه . فقد خطر ببالي أننا نقدر ان تصرف هذه الليلة بصورة غير التي ابتدأنا بها وهي بمرفق افضل واكثر نفعاً . فما قولكم لو جمعنا الكراسي في نقطة واحدة بشكل دائرة وجلسنا جميعنا الواحد بجانب الآخر ولعبنا لعبة " المركب " وفرضنا على كل مغلوب عشرة سنوات يدفعها كلما اخطأ مرة ؟ في هذه القاعة ثمانون فرداً فاذا غلب كنى منا مرة واحدة كان المجموع ثمانية ريبالات تقدمها غداً الى لجنة اعانة المنكوبين . فبهذه الطريقة ننفع وننتفع . ننتفع اهلنا البائسين في الوطن ونساعد في حفظ حياتهم وننتفع من وجهين الاول اننا نكسب اجرهم ونعود نفوسنا على الشعور الحسن والثاني اننا نريح اجسادنا من وطأة المشروبات المضرة وتلاهي عن الكلام القبيح فقه فقه فقه ... صرخ الجميع ضاحكين وامتلأت القاعة حالاً بضجة

الاستهزاء والصفيير و " المهورية "

— " نطقت حمارة بلعام بالآخر تشكر الرب "

— " عاد الناسك من قرتنو للعالم . كيف حال القرنة من صوبك يا عم "

— " حكي سليم الساكت ومدري حمار ميم بدو يموت "

— " يراقو سليم بيلك . اجاد الأخرس "

— " اتركوا الخطيب يخطب يا ناس . ربنا بعث " الكركوز " بوقنو "

— " اهلاً بلويد جورج . اهلاً بيمبرانو . اهلاً بالحج سليم "

خطر ببال سليم ان يترك القاعة هرباً من هذا الاستهزاء المر واسرعت دقات قلبه وتحلب العرق من اطرافه وارتجفت اعصابه خجلاً وغضباً .

ولو ان غيره في محله لسكت حالاً وذهب لكنه لم يكن ممن ينشئ عزمهم
لأول نثرة بل بقي في قلبه بصيص من الأمل فيجمع افكاره المبعثرة واردف
بصوت شديد أرغم القوم على السكوت -

- لماذا تضحكون ايها الاخوان وليس في كلامي ما يهيج غضبك ؟
انا قلت لكم اننا نقدر ان نقضي هذه الليلة بطريقة اشرف وافضل من طرقكم
ولا ازال اردد كلامي . عار علي . وعليكم ان نصرف الريالات الكثيرة على
بطوننا وملذاتنا الجسدية واهالينا يفرعون الابواب طلباً للقوت . عار علينا
ان نأكل فوق الشبح ما يحفظ حياة الالوف من الموت . عار والف عار
ان نستقبل العام الجديد بهاليل السرور واللهو والبطر بينما امهاتنا واخواننا
واخوانتنا واباؤنا واقرباؤنا وكل من لنا تحت هذه الشمس ينظرون اليه
كهام الويل والفناء يميون داعة ويطون جائعة وقلوب منكسرة ومهيج منفضرة
وآمال ذابوية ونفوس خاوية يرتجف لمول الموت الراقص حولها يصنطف
منها كل يوم وليمة دامية . على ماذا تضحكون ؟ أعلى افواه الصغار المنفتحة
كأفواه العصافير تطلب طعاماً فلا تعطاه ؟ ياذا تستهزأون ؟ أبوسلات
امهاتكم المملولات الشعور المنحلات الظهور ام بصراخ اخواتكم المبتوكات
الاعراض على قارعة الطريق ؟ يا لنخوة الرجال يا لهمة الابطال ! اكذا يهزأني
الابناء والذبيهم . اكذا تنسون مساقط ررؤوسكم ؟

انظرون - « ما سقط غير راسك يا حمار . نحنا روسا قويه »

زعيم - « والله لو ما القيه لالكاس المليون كنت بتجريك يا كلب

الغرب من يستعطف واسو

حبيب - « حاجي بقا يا بارد . عندك غسل قرفت نفوسنا »
 قريد - « وتمزقت مصاريننا يا هوا الاصفر . انزل يرمو رقبتهك »
 حليم - « بطل يا مجنون نحنا منعرف اهلنا محتاجين من دون وعظمتك .
 روح لعند صاحبك ليبيه يركي بتعطيك » بسطرينه « احم احم »
 هنا لم يعد في طاقة سليم الاحتمال والصبر وانطفأ آخر بصيص امل من
 ذلك القلب الكبير فاطلق للسانه العنان وصاح -

— انا اذهب ؟ لا . ليس الان ولكن بعد ان ابصق في وجوهكم ايها
 الصعاليك . بدأت بالكلام وسا كل لان ضحيجكم الذي . يعجز عن اسكات
 صوت الحق والشرق . اتيت هذه الليلة لاعلمكم درساً باللطيف فلم تتعلموا
 هكذا الحسير لا تطيع الا بالعصا . جئت اتخذكم لي اسدقاء . فقايتسوفيا
 بالعدا . هكذا الجهال يبدلون الصداقة بالعداوة اينما حلوا . حاولت ان اجعل
 منكم رجالاً محترمين فاييتم الا ان تفللوا صعاليك استهزاء وخساسة . فليكن
 كما تريدون . ولكن اذكروا ان كانت لكم رؤوس تفكروا وشعروا ان كانت
 لكم قلوب تشعروا انكم لا تهزأون في هذه الليلة ولكنكم تهزأون بوطنكم
 وبامتكم وبنفوسكم . من انا ؟ انا لست الا آلة تردد على سماعتكم الذين اقوم
 بالاسين فاذا انتبهتم قولي انتبهتموهم وان احتقرتموه احتقرتموهم واما
 انا فاغلل خارجاً عما تفعلون وتفعلون . ايها الجهال ! ضحكتم مني اولا لسكوني
 ولكن أليس السكوت افضل من عواصف الكلام البذيي . الفارغ ؟ ثم عدتم

فضحككم لكلامي ولكن أليس كلامي اشرف من عريضة السكر ولعنات القمار ؟ أليست الاحاديث الوطنية ارفع من قصص العشق وتذكارات الغرام الفاسد ؟ أليس عمل الاحسان اسمى من لعب الورق والتمرن ومن التدخين والتعشيش ؟ تقولون انها ليلة رأس السنة وانها ليلة ثمينة يجب ان تحتسبها . حسن . ولكنكم قد اضعتموها فهل تعرفون ؟ ان الليلة التي تقضى بالتجديف على الخالق والاستهزاء بآلام الوطن هي رفيسة بخسة - وليس هذا فقط - بل هي رجسة دنسة . وانتم انتم يخستموها وانتم انتم دنستموها . الفرح ؟ وما هو الفرح ؟ هو عاطفة عمياء قبيحة تشوه معاني النفس الجميلة . هو شعور الانانية يقف فاصلاً بين القلب وبين اشعة شمس الفضيلة والمحبة . هو جنون في الروح يحول تسامها اللطيفة الى عواصف ثائرة تسفي في عيونها الرماد والرمال . ولكنكم قد تعودتم على الاذى فانتم لا تشعرون وقد ملأت عواصف الفرح الكاذب عيونكم برمادها ورمالها فانتم لا تبصرون . اهذا هو الفرح عندكم يا عميان ؟ اهو ان تسكروا وتدخنوا وتلعبوا وتنفختموا وتضحوا وتقلقوا الحي بضحيبكم ؟ اهو ان تغلقوا بطونكم وتستسوا اجسادكم وتلتذوا بكل ما لكم من الحواس اللحمية القفزة ؟ جل العيش شكم يا خنازير الشحم واللحم وسمت الحياة عن صفارتكم يا بطون الاكل والشراب . انتم اموات والموتى لا يشعرون .

الضجة تشد واللفظ يتزايد والسكرارى الاربعة يهشون بالوصول الى المتكلم لانه فاشعرون بالكراسي ويستطون . التثائم تصب من كلمة

فم على رأس سليم لكنه لا يسمع ولا يرى . يقف لحظة لتجديد نفسه المنقطع
ثم يعود متدفقاً بصوت يتهدج حماسة وهياجاً -

- ماذا ؟ اتودون اسكاتي . اتحاولون قتالي ؟ تقدموا يا جيئآ . ان
استطعتم . تعالوا اقطعوا لساني واذبوني ثم ارجعوني ثم اصلبوني . انا
عدوكم . انا عدو الحياة والحماسة وسفالة النفس أفهتكم ؟ تعالوا انتقموا
لانفسكم فاموت شهيداً كاليسوع واستفانوس ومحمد المصطفى . تعالوا
احرقوا جسدي الحقيق ثم اطحنوه وذروه في الهواء فاموت كجان دارك الباسلة
ولكن لا . انكم لا تستطيعون ان تهبوني هذه النعمة . من انتم ايها الثعال ؟
انتم حيوانات دنيئة قدرة تعيش بالحيلة والتدلل . انتم دبابات ضعيفة خبيثة
خائفة تسرح في حلك الليل لتباغت فريستها بايادي الغدير . ما هي الشجاعة
في عرفكم يا جيئآ ؟ الشجاعة ليست في التجديف على الخالق والكفران
بالحقيقة . وليست في احتقار الناس والاستهزاء بكلامهم وليست في اجترار
قناني الوسكي ليعال عنكم « شريين ما شاء الله » وليست في حمل الاتصال
والمباطحة والمكابشة كما هي عادة الاكباش والثيروس والجمال وليست في
التمدي على الناس بلا سبب وليست في مخادعة البنات المسكينات وغدرهن
بطرق الروغ والفساد . ان الشجاعة - الشجاعة الحقيقية - هي المحاربة
عن الضعيف والانتصار للحق والتدبر على كل قوة مستبدة . ان الشجاعة
هي الثقة بالنفس والاعتراف بالخطأ . ان الشجاعة هي حفظ الجليل ورد
المعروف وانقاذ الملهوف . ان الشجاعة هي الموت في الدفاع عن الوطن -

الوطن - الوطن ...

هنا تترقق دمة في عين سليم فيسممها قبل أن تدحرج ويردف -

هناك ! هناك ! تحت سحب الدخان وبروق المدافع ورعودها وبين
قصفات صواعق الموت ووثبات جحافل الويل والفناء . هناك ! هناك وطنكم .
ارض سقتها ايادي الخيانة غيوثاً من الدم الاحمر بدلاً من غيوث السماء
واطعمتها لحوم البشر بدلاً من سباد المواشي فهي يابسة عقيمة جرداء . غلثها
الشوك واقطرب مكان الحضلة والشعر والعوسج والعليق بعد النيب والتين
والزيتون . هذه بلادكم . اواه . وامة فيها تراكض الى هنا وهناك جماعة
خائرة خائفة تلثم في طريقها الاعشاب اليابسة ممزوجة بالتراب ثم تسقط
في آلامها ونموت . هذه امتكم . هؤلاء امهاتكم وآباؤكم واخوتكم
وذووكم يا نزل نيويورك . نفوس بائسة ارواح متكسرة قلوب منسحقة ،
اجسام منهزمة ، شبان على المشاة متدلية ، كهول على النطع مذبوحة ، نساء
كالاحيلة يقرعن الصدور ويقتلعن الشعور ، حبايا كالملائكة يتخبطن
في ايدي شياطين الشهوات متوسلات متلذذات مستغيثات صارخات ، اولاد
كالاشباح يثنون في زوايا البيوت مفكرين بقشور البرتقال وفضلات الارض
كما يفكر القريق برؤوس الجبال . شعب من لحم ودم يعاني آلام النزاع
ويتخبط في بحار من دمه بلا نصير ولا امل ! فما اثم هنا فاعلون ؟ الجوع
يدفعهم الى البحر والبحر يقذفهم الى الصحراء والصحراء ترجمهم الى الديار
الخالية ومنالك بين السيف والنطع والمشنقة والصلب والطوى والرخاص

والفضيحة والمذبة ، يقولون يستسلمين خائفين صامتين وينظرون الى السماء
مصدقين باطرافها الواسعة ومن وقت الى آخر يلتمسون الى ، قرب الشمس
ويتعمنون في حدود البحر البعيدة عليهم ان يروا ولو نقطة سواد ، يملكون بها
نفوسهم الواقعة بين الموت والحياة . ولكن وأسفاه ! ان من يعلمون بهم
نفوسهم يفرحون بليلة رأس السنة ويتلذذون بالمأكول والمشروب ، يتلاهون
عن ارواح تسعدنا كليلة من افواههم وتعضيها كسرة من فضلاتهم . يا المنكران
الجميل ! يا غساسة النفوس . ارض شربتم ماءها وشققتهم هواها ، وحسبتمكم
ربوعها واسعدكم ربيعها ، تصرخ اليكم فلا تسمعون ، ومنذ نحوكم اذرعها
فلا تنفعلون . ام ولدتكم باوجاعها ، وغذتكم بلبثها ، وربتكم بآلامها ،
واب اطعمكم دماء القلب ، وسقاكم عرق الجبين ، واخ صغير يذكركم مع
ذكر الله ويتشوق لروءيا وجوهكم ولو في العلم ، واخت يلمت صدرها
دموعها ، وطال فشاها وقل هجوعها ، تذكركم بحرقة وحنين ، وتصلي قارة
صدرها لرجوع الغائبين ، يشكون اليكم آلامهم فتضحكون ، ويسطون
لديكم اشواقهم واخزائهم فتهاون ! لو كانت لكم ذرة من شعور الانسان ،
لو كانت لكم حبة من الشرف لقلتم للامبيال اهلبي علينا ولنجار ابتلعينا .
لو كنتم بشراً لقضيتم هذه الليلة جاثين على ركبكم في الشوارع صامتين
صمت الحزن المنيق مشاركين اسكم الجاثية بتضرعاتها ، مشاطرينها بعض
آلامها وغداياتها . ولكن لا فانكم لن تفعلوا واذا كانت حياة الشرق من
اكف خونة امثالكم وكيانه من كيانكم قلعت وليتقرض قبل ان تدفنه

منة الحائنين .

اضحكوا يا كلاب . اضحكوا يا خنازير . اضحكوا يا جراثيم كل
 دناءة وخساسة ومذلة وقنارة في الوجود . ولكن التاريخ سيظهر لكم ذكراً
 ييضق عليه اولادكم ويلعنه اولاد اولادكم . وستلعنكم الحياة كما لعنت
 قايين وستنبذكم الامم وتقبضكم الشعوب فتحيون هاربين في الارض هائمين
 على وجوهكم ضاربين في البراري والقفار لا تعرفون وطناً ولا يعترف بكم
 وطن . حينئذ لا يهني واحدكم اخاه بهام جديد بل تصبح ليالي روءوس
 السنين سهاماً من نار تحترق قلوبكم وسيوفاً من لبيب تقطع احشاءكم
 واشهالك غصص تدمي خناجركم . يومئذ نأكلون خبزكم معجوناً بالدم
 ونشربون مياهكم مزوجة بالعلقم . يومئذ لا تضحكون ايضاً ايها الضاحكون
 وخرج

.

في مساء اليوم التالي التقى سليم بأحد معارفه في الشارع فامسكه الاخير
 ووقف متفرساً في وجهه بطريقة مذهشة . وبعد دقيقة مضت بالسكوت
 تاركاً سليم بأشد الحيرة والاستغراب قال - « سليم ! اخي . عيوني »
 تقبرني . ايش صابك مبارح ؟ خبروني الناس انو حكمتك عارض جنون
 بالتهوة وضحكك الحاضرين عليك والخبر منتشر اليوم بكل المدينة . خبرني
 بحياة الله . صحيح ؟ مثلما قالوا ؟ »

- نعم صحيح .